

## سانت كاترين

ظلت حوالي ثلاثة أعوام (١٩٩٩-٢٠٠٠-٢٠٠١) أذهب إلى سانت كاترين مرة كل شهر، مع أفواج سياحية فرنسية، لتنفيذ برنامج سياحي كان يبدأ بوصول السياح إلى الإسكندرية مساء السبت على طائرة لوفتهانزا الألمانية، ثم نقوم بزيارة آثار الإسكندرية يوم الأحد، ثم نغادر الإسكندرية صباح الاثنين مخترفين الدلتا من الغرب إلى الشرق، لنصل إلى موقع آثار (تانيس)، ثم نستأنف الطريق لنقضى الليلة في الإسماعيلية، وصباح اليوم التالي الثلاثاء نعبّر قناة السويس، لننوقف قليلاً عند عيون موسى وحمام فرعون وأديرة وادى فيران، ثم نصل إلى سانت كاترين بعد ظهر ذلك اليوم.

كنت أحياناً عندما نصل إلى سانت كاترين قبل الثالثة ظهراً، أذهب إلى الدير قبل أن يغلق أبوابه أمام الزائرين، وأذهب إلى الكنيسة الصغيرة لحضور صلوات الرهبان، وهم أغلبية يونانية، ثم قد أستطيع أن أحصل على مكان لقضاء الليل في عنابر الدير، وهكذا أستطيع أن أنتهز الفرصة لمقابلة بعض الحجاج الذين يأتون من أماكن مختلفة في شرق حوض البحر المتوسط، خاصة من اليونان ومن قبرص. أما إذا لم أتمكن من الحصول على مكان للنوم، فأني كنت أضطر إلى الخروج من الدير والمشى حوالي ثلاثة كيلومترات حتى أصل إلى حجرتي في فندق وادى الراحة، حيث يبني سياحي.

كانت زيارة سانت كاترين مع السياح الفرنسيين تنقسم إلى زيارتين، الأولى مسائية لمن كان من السياح في حالة صحية جيدة جداً تسمح له بصعود الجبل أثناء الليل، وفي تلك الحالة كنا نذهب إلى

الغراش الثامنة مساءً، حتى نستيقظ الثانية صباحًا، ونبدأ في صعود الجبل، ونصل إلى قمته حوالى السادسة صباحًا حيث نستمتع بمنظر شروق الشمس على قمم جبال سيناء. تقع قمة جبل سانت كاترين على ارتفاع ألف متر من الدير، أو حوالى ألفى متر من سطح البحر، ويفهم من ذلك أن الدير يقع على ارتفاع ألف متر من سطح البحر. وكنت إذا صعدت مع السياح الفرنسيين أستأجر أحد البدو المقيمين فى المكان، ليقودنا إلى أعلى الجبل، أو على الأقل ليكون هو فى مقدمة الركب وأكون أنا فى مؤخرته. وغالبًا ما تكون درجة الحرارة عند قمة الجبل مساءً تحت الصفر، حتى لو كنا فى شهور الصيف، وذلك بسبب ارتفاع القمة بتلك المسافة عن سطح البحر، ولذلك تلزم ملابس ثقيلة لمواجهة هذه البرودة، وعادة ما كنت عند القمة أنشغل بتدفئة قدمي فى مقهى جيد الغلق، فى حين ينشغل سياحى بأداء بعض الصلوات الجماعية مع غيرهم من سياح العالم، وذلك رغم انتماءاتهم الدينية المختلفة، فالمكان مقدس لكل الديانات التى تعترف بالنبي موسى، وذلك لأنه المكان الذى تسلم فيه سيدنا موسى الألواح المقدسة من الله.

كل هذا كان جميلًا جدًا، إلا أن الشئ السخيف فعلا هو الزيارة الصباحية، زيارة داخل الدير فى الفترة الصباحية المخصصة للمجموعات السياحية من الساعة التاسعة صباحًا إلى الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وسبب السخافة هو وجود أعداد هائلة من البشر تقف طوابير طويلة أمام باب واحد فقط صغير جدًا، وفوق البعثة فهذا الباب مخصص لغرضين اثنين فى نفس الوقت، الدخول والخروج، وهو ما يخلق حالة من الفوضى والدافع والتزاحم، وسقوط الأطفال وكبار السن تحت الأقدام، كما لو كنا فى معركة تفقد المكان كل قديسيته، وذلك رغم وجود عدد كبير من رجال الشرطة لتنظيم المسألة. كان ينبغي أن يخصص باب آخر للخروج.

ثم كانت المشكلة الأخرى هي إصرار كل المرشدين السياحيين على التحدث إلى مجموعاتهم بكل تفاصيل المكان، وبكل تفاصيل تاريخ المكان، داخل المكان نفسه وبصوت مرتفع جدًا، مما يجعل الطوابير تنتظر بعض الأحيان لمدة ساعة بدون حركة، كما أن ضيق المكان الشديد كان يجعل الضوضاء مستحيلة. كان ينبغي على المرشدين إلقاء تعليقاتهم خارج المكان، وتوزيع خرائط صغيرة بخط السير داخل الدبر، وهكذا يمكن للجميع الدخول في طابور واحد متصل متحرك ببطء وبدون توقف وفي صمت تام.



## ستيفن إيدج Stevenage

(١)

هي مدينة إنجليزية صغيرة، تقع في الطريق بين لندن وكامبردج، حوالي ٦٠ كم شمال لندن، كان تعدادها ٦٠ ألف نسمة عندما أقيمت فيها أربعة أشهر في صيف سنة ١٩٧٤.

كنت قد وصلت من القاهرة إلى لندن بطائرة الخطوط الجوية البريطانية، إلى مطار هيثرو غرب لندن، يوم الجمعة ٥ يوليو، وكان قد استقبلني في المطار أحد أبناء عمومة أبي، رجل في الخمسين من العمر، كان قد تعرف على زوجته الإنجليزية في مصر منذ حوالي عشرين عامًا عندما كانت تعمل في الإرسالية الأمريكية بأسيسوط، ثم سافرا معًا عائدين إلى إنجلترا في أوائل السبعينيات ومعهما أولادهما، صبي وثلاث بنات.

أمضيت في بيت ذلك الرجل، الأستاذ زكريا، أيامي الأولى في إنجلترا. استيقظت صباح اليوم التالي السبت على أجراس سيارة توزيع زجاجات اللبن على البيوت، وبقينا طوال النهار في حديقة المنزل في مدينته الصغيرة لتشويرث، ثم ذهبنا مساءً إلى كنيسة المدينة، حيث اشتركت معهم في الغناء في الكورال. أما يوم الأحد فقد ذهبنا صباحًا إلى حقول الفراولة، وذلك للمشاركة في جني الثمار، مع أكل ما تستطيع المعدة كل منا هضمه أثناء الجني. وعند العودة بالسيارة مررنا بمدينة كامبردج، حيث توقفنا قليلاً لنشاهد أبراج الكنائس القديمة، وكذلك مباني الجامعة العتيقة التي يعود بعضها إلى القرن الخامس عشر.

وعندما مررنا بحقول القمح والشوفان، كان مرور الرياح فوق تلك المحاصيل يؤدي إلى توالد موجات تشبه موج البحر، ويسمى الإنجليز هذه الظاهرة بالأرانب البرية، وذلك حيث إن مرور تلك الأرانب البرية بهذه الحقول، هو أيضًا يؤدي إلى توالد موجات شبيهة، ويخلق نفس التأثير الجمالي.

ذهبت مع عم زكريا صباح الاثنين إلى مدينة ستيفن إيدج، وذلك في سيارة نقل عام، حيث إنه كان يفضل استعمال سيارته فقط في أجازات نهاية الأسبوع، حيث إن المواصلات العامة نظيفة جدًا ومنظمة. ذهبت معه إلى مقر عمله التاسعة صباحًا، في شركة التأمين مانيولايف، وتواعدنا على اللقاء في نفس المكان، أمام بوابة الشركة الثانية عشرة ظهرًا، وذلك لتناول وجبة طعام الغداء سويًا. وهكذا وجدت نفسي وحدي تمامًا في قلب مدينة إنجليزية صغيرة، لأول مرة في حياتي في بلد أجنبية، أنا الذي لم أكن قد غادرت طنطا إلى القاهرة إلا صباح أول أمس.

ذهبت إلى ميدان وسط المدينة، والذي كان تقريبًا خاليًا من البشر، وذلك لأن يوم الاثنين هو أول أيام أسبوع العمل، والعمل هنا مقدس، شعرت لحظة بالضيق، وتساءلت أين أذهب، فأنا لم أكن معتادًا على الاستقلالية إطلاقًا في حياتي السابقة، فمئذ طفولتي وخلال فترة مراهقتي، كنت في أغلب الأحوال تابعًا مطيعًا هادئًا.

كانت رحلة إنجلترا في ذلك الصيف هي أولى علامات بداية الصحوة النفسية، أولى خطوات رحلة الألف ميل في تكوين شخصية مستقلة، خطوة جاءت متأخرة قليلًا، ولكن الحمد لله أنها على أي الأحوال كانت قد جاءت. نظرت حولي فوجدت شابًا وفتاة في وضع غرامي في حديقة مجاورة، فحولت عيني عنهما فورًا.

لمحت عبر الشارع اسم محل (مكة بولنج Mecca Bowling)،

وهي لعبة منتشرة هناك، اعتقدت أن اختيار اسم المحل به شبهة سخرية، ولكنى عرفت فيما بعد أن المقصود هو أن هذا المكان هو الذى يأتى إليه كل الناس من أطراف إنجلترا، لممارسة لعبة البولنج.

أول ما فكرت فيه كإنسان معقد ومكبوت جنسيًا، هو البحث عن مكتبة أو عن بائع جرائد، وذلك لشراء مجلة جنسية، وفعلاً ذهبت إلى المكتبة وعدت بالمجلة إلى نفس المقعد الذى كنت أشغله، وكان يوماً مشمساً جميلاً، واستمتعت بصور المجلة بعض الوقت، ولكن عندما حان وقت ميعادى مع عم زكريا، لم أجرؤ على الذهاب إليه ومعى هذه المجلة، فمزقتها وألقيت بها فى صفيحة الزباله، رغم أن قلبى كان يتحسر عليها (وذلك رغم تربيتى الدينية وأخلاقى القويمة).

كان معى مائة جنيه استرلينى، وكان المسموح به للطلاب فى ذلك الوقت، هو تحويل خمسين جنيهاً استرلينياً بسعر البنك (١٤٠ قرشاً للجنيه الاسترلينى - يا خسارة) على الباسبور، وكنت قد حصلت على خمسين جنيهاً أخرى من السوق السوداء.

دخلت محلاً للملابس اشترت منه قميصاً خفيفاً بكاروهات، وكذلك بنطلون جينز أسود، وحذاء بوت أسود، وكان إجمالى ثمن هذه الملابس الإنجليزية هو سبعة جنيهات فقط لاغير، ثم دخلت محلاً آخر وهو فرع لشركة ماركس أند سبنسر، حيث اشترت بلوفر بمبلغ ثلاثة جنيهات استرلينية، وكانت الأسعار كما ترون ما تزال رخيصة جداً، رغم ما كنا قد سمعناه قبل السفر عن ارتفاع الأسعار فى أوروبا كلها ذلك العام، بسبب أزمة البترول أثناء حرب ١٩٧٣.

حسب الميعاد كنت مع الأستاذ زكريا فى مطعم صغير تابع لمبنى الشركة التى يعمل بها، وأثناء الغداء قال لى أن زوجته كانت قد وجدت إعلاناً فى الجرائد المحلية، عن طلب عمال يدويين فى مخبز صن بلست الآلى، وهو على أطراف المدينة، وأنها قد حصلت لى على ميعاد مع مستر (فارو) المدير، الساعة الثالثة بعد الظهر، ثم إن لدينا كذلك ميعاداً مع مديرة أحد بيوت الضيافة للشباب Y.M.C.A، الساعة الخامسة والنصف مساءً.

ذهبت أولاً إلى ميعادى مع مستر فارو، وذلك بالاستعانة بخريطة للمدينة اشتريتها من الميدان، وكنت قد قررت أن أذهب إلى المخبز الآلى مشياً، ولكنى فى واقع الأمر كنت قد أخطأت تقدير المسافة التى اكتشفت أنها حوالى ٧ كم.

كان المستر فارو لطيفاً جداً عندما استقبلنى، وذلك عندما علم فقط بأننى مصرى الجنسية، وذلك حيث إنه يحب مصر جداً، وكان ما يزال يتذكر كيف أنه منذ حوالى ثلاثين عاماً، كان أثناء الحرب العالمية الثانية قد حضر إلى مصر ضمن قوات الاحتلال البريطانى، وذلك أثناء تأدية خدمته العسكرية، كان قد أخذ قطاراً حربيًا بين الإسكندرية والقاهرة، توقف فى بعض محطات المدن الرئيسية، وقد انبهر تمامًا بمناظر الريف المصرى، وبالأخلاق الحميدة للشعب المصرى. ثم إن مستر فارو قال لى بعد ذلك أن أذ زجاجة بيرة شربها فى حياته، هى زجاجة البيرة (ستلا) المصرية. وهكذا كان الفضل لهذه الستلا فى حصولى على وظيفة بهذا المخبز.

عملت فى هذا المكان حوالى أربعة أشهر، أولاً فى قسم النظافة حيث كان مطلوباً منى جمع الخبز المتساقط على الأرض، وكان

المرتب ٢٥ جنيتها استرلينيا في الاسبوع، ثانيا في قسم التغليف حيث كنت أقم أمام سيور يمر عليها الخبز ليدخل بعد ذلك في ماكينات التغليف، وكانت طبيعة عملي تتلخص في تحويل الخبز من السيور التي يتراكم عليها، إلى سيور أخرى خالية، وكان المرتب ٣٠ جنيتها استرلينيا، ثالثا عندما اكتشفت أن ورديات الليل فيها إضافة ٢٥٪، بدأت أعمل ليلا وارتفع مرتبي إلى ٤٠ جنيتها استرلينيا، رابعا ثم أخيرا عندما عرفت أن العمل يومى السبت والأحد بضيف نسبة مئوية أخرى إلى المرتب، ارتفع مرتبي إلى ٥٠ جنيتها استرلينيا. ومع هذه الارتفاعات المتتالية في مرتبي، تمكنت من البقاء في إنجلترا حتى آخر أكتوبر، وتمكنت كذلك من ادخار مبلغ ٤٠٠ جنيه استرلينى، فقررت مع بعض المساعدة العائلية، الذهاب إلى باريس لشراء سيارة فولكس، شحنتها على مركب من ميناء جنوا الإيطالى، عاتذا بها إلى الإسكندرية.

أقمت خلال هذه الشهور الأربعة في نزل الشباب Y.M.C.A، وكان يشغل بيتا من ثلاثة طوابق تحيط به حديقة كبيرة، كان الطابق الأرضى يتكون من مطعم، وصالة رقص واحتفالات، وصالة بها موائد (البينج بونج)، وصالة أخرى بها مكتبة وآلات بيانو، أما الطوابق العلوية فكانت تشغلها عنابر النوم.

وجدت في عنبر نومى شابا من جنسيات مختلفة، من الهند، ومن الصين، ومن الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الشاب الهندى أفضلنا ظروفا، وذلك حيث إن شباب البلاد التابعة للكومونولث كانت لهم الأولوية فى كل شئ، فى السكن وكذلك فى الوظائف. كانت الإقامة بالإضافة إلى وجبة مسائية محترمة (طبق أول من الحساء - طبق ثان من الخضراوات مع اللحوم والبطاطس البوريه - طبق ثالث من الحلويات أو الفاكهة - زجاجة لبن مبستر لتر) تكلف تسعة جنيهات

استرلينية فى الأسبوع (يا بلاش).

كنت أشغل وقت فراغى بعد العمل، خلال أيام الأسبوع، بالتجول فى المناطق الريفية المحيطة بالمدينة، وكان غروب الشمس فى شهر يولية فى الساعة العاشرة والنصف مساءً، وكنت قد تعرفت على (الاستر) الأيرلندى، وكان فى العشرين من عمره مثلى، فكنا نذهب سوياً على دراجته وعلى دراجة أخرى كان يستعيرها لى من أحد أصدقائه نزلاء الدار، فى جولات حرة فى الريف الإنجليزى، وكنا نقطع أحياناً حتى ثلاثين كيلو متراً فى المرة الواحدة. كان يأخذ سنابل القمح من بعض الحقول، ويفرکہا فى يده، ويقترّب من المناطق الموجودة بها خيول برية، وهى التى ترعى وحدها كقطعان، ويمد يده لها بهذا القمح، فتقترّب منا الخيول وتمد رءوسها لتلتقط من يده هذا القمح، وكان يبدو لى أن تلك الخيول تعرفه (أنتم الآن على أننى لم أكن قد عرفت بعد قيمة استعمال التصوير الفوتوغرافى فى تسجيل الذكريات). ثم إننا كنا غالباً نتوقف أمام بعض المباني القديمة أو القصور المهجورة، والتى يبلغ عمر بعضها بضعة قرون، وذلك لتأمل واجهاتها، ثم ليحكى لى (الاستر) أحياناً كيف أن الشائعات تقول أن بعض تلك القصور مسكون بالأشباح والعماريات، وأتذكر أننى رأيت معه مرة كتاباً بعنوان (دليل الزائر إلى الأماكن المسكونة بالأشباح فى بريطانيا Visitor's guide to haunted places in Britain)، فهم يعتقدون جادين فى وجود العماريات. ثم نذهب بعد ذلك إلى مقهى لنشرب عصير التفاح المتخمّر (سايدر Cydre)، ولنمارس لعبة قذف الأسهم الصغيرة على لوحة دائرية معلقة على الحائط (Darting).

(٣)

كان ذلك سنة ١٩٧٤، ولم أعد إلى بريطانيا إلا بعد ذلك بثلاثين عامًا، أى سنة ٢٠٠٤. كنت قد أخذت القطار (Eurostar) من باريس إلى لندن، ومن محطة واترلو إلى محطة فيكتوريا بالأندر جراوند (المترو)، وأقمت فى فندق متواضع نجمة واحدة، وصباح اليوم التالى أخذت المترو من فيكتوريا إلى كينجز كروس، ثم القطار إلى ستيفن إيدج، عائدًا إليها بعد ثلاثين عامًا من مغادرتى لها. كنت ملهوفًا بشدة تتلاحق أنفاسى، وتدمع عيناى، وذلك عندما قرأت الياقطة التى تحمل اسم المدينة فى محطة قطاراتها، خرجت من القطار لأعبر الكوبرى نفسه الذى ينقلنى مباشرة إلى ميدان وسط المدينة، ذلك الذى كنت قد جلست فيه فى أول يوم لى فى هذه المدينة منذ ثلاثين عامًا. نفس المحلات، نفس الممرات وسط المنطقة التجارية، نفس الساعة وسط الميدان.

الصدمة الأولى: لمحت من بعد مبنى شركة التأمين التى كان يعمل فيها عم زكريا مهجورًا تمامًا، بنواقذ محطمة، وطلاء حائط متساقط. كنت فى طريقى إلى متحف المدينة، فسألت موظفة شبك التذاكر عن شركة التأمين، فقالت أنها قد أغلقت أبوابها والمبنى كما ترى أصبح مهجورًا. وجدت فى المتحف كتالوجًا به صور للمدينة عبر تاريخها القصير، منذ إنشائها فى أوائل القرن.

الصدمة الثانية: أخذت سيارة نقل عام من موقف سيارات وسط المدينة، وشرحت للسائق رغبتى فى الذهاب إلى Y.M.C.A، فقال أنه لا يعرف عنوان هذا المكان، تذكرت العنوان وذكرته له، فقال أنه يمر فى طريقه بهذا المكان، وتعرفت على المكان قبل الوصول إليه بفضل أسماء الشوارع التى كنت ما أزال أتذكرها، Vardon - Pin-green road، نزلت فى المحطة قائلًا للسائق أن هذه هى أول مرة أعود إلى

المكان بعد غياب ثلاثين عامًا، قال: (كم)، قلت: (ثلاثين)، قال: (لم أكن قد ولدت بعد)، توقفت لحظة لأنظر إلى طوله وعرضه وأقول فى نفسى (عندما كنت هنا لآخر مرة كان هذا الكائن البشرى ما يزال فى علم الغيب)، فى تلك اللحظة أدركت حجم العمر الذى مر.

ومما زاد الطين بلة، هو أننى لم أعثر على أى أثر لمبنى نزل الشباب! حيث إن أحداً من الأشخاص الخمسة الذين سألتهم عن المكان لم يستطع أن يدلنى عليه، ونصحنى أحدهم بسؤال مكتب البلدية الموجود بالحى، حيث قالت الموظفة أنها تخشى أن يكون المكان قد أزيل من الوجود أثناء التوسعات والتجديدات فى المدينة خلال فترة الثمانينيات.

الصدمة الثالثة: قررت أن أنسى موضوع نزل الشباب، وأذهب على الأقدام إلى المخبز الآلى، ذلك المشوار الذى كنت أقطعه يوميًا على الأقدام ذهابًا وعودة لمدة أربعة أشهر، مشيت فى اتجاهات مختلفة ولم أصل إلى أى شئ، شعرت بإحباط فظيع، قررت أن أنسى كل شئ حيث إننى كنت مرهقًا جدًا فأنا لم أعد فى العشرين من عمرى وإنما فى الخمسين، قررت العودة إلى وسط المدينة، والعودة بالقطار إلى لندن، عسى ألا يكون هناك المزيد من الصدمات هذا اليوم (عائزنا نرجع زى زمان، قول للزمان ارجع يا زمان).

## ميدان سفنكس

فى واحدة من العمارات المظلة على هذا الميدان فى قلب حى المهندسين بالقاهرة، وفى الطابق العشرين منها، كان يوجد فى الثمانينيات ملهى ليلى. وكان هذا شيئاً غريباً جداً، وجود ملهى ليلى فى عمارة سكنية. صحيح أن أصحاب هذا الملهى الليلى كانوا قد حلوا المشكلة جزئياً، وذلك بأن كان لهم مصعدهم الخاص بهم، من الطابق الأرضى إلى الطابق العشرين؛ ليستعمله زبائن الملهى فى الصعود إليه (هؤلاء الزبائن الذين كان يصل عددهم أحياناً خاصة مساء الخميس إلى بضع مئات). إلا أن المصعد بالإضافة إلى زبائن الملهى، كان مخصصاً كذلك لصعود وهبوط الفرق الموسيقية، والآلات الموسيقية، والنوبتجية حملة الآلات الموسيقية، ثم بعد ذلك كله لصعود وهبوط السادة الفنانين .

لم أستطع أبداً تخيل وضع العمارة قبل تركيب المصعد المخصص للملهى الليلى، فأنا عندما عملت بهذا الملهى الليلى لمدة أسبوعين فقط لا غير، خلال شهر ديسمبر من العام ١٩٨٣، كانت هناك مشكلة حادة جداً، هى مشكلة صعود وهبوط هذه مئات. فكان يحدث أحياناً أن يصل النجم الفنان قبل موعد فقرته الفنية بربع ساعة، وذلك حيث إن الفنانين عادة يعملون فى عدة ملاح ليلية فى الليلة الواحدة، ينتقلون بينها وبين العديد من الفنادق، وذلك للظهور فى برامج هذه الفنادق والملاهى الليلية كلها بغرض توسيع رقعة الشعبية، وكذلك بغرض تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية، وكلها كما ترون أهدافاً مشروعة. إلا أن المشكلة هى أن هذا الفنان النجم كان يصعد طبعاً وحده أولاً، وعادة لم يكن لديه مانع من أن يشغل المصعد معه عدد

من الزبائن، ثم يصعد بعده فى المرة التالية أهم عازفيه، أو أولئك الذين يعزفون معه مقطوعات منفردة أثناء فقرته الفنية، ثم فى المرة الثالثة كان هناك فريق الطبالين على آلات الإيقاع المختلفة (الدف - الدريكة - الطبله - الصنج - إلخ.....)، أما فى المرة الرابعة فلم يكن هناك داع للصعود، فقد انتهت الفقرة!

وحيث إن موقع هذا النادى الليلى حصين جدًا، وذلك حيث إنه لا يمكن على الإطلاق مداهمته بقوة بوليس كما يحدث عادة فى شارع الهرم، حين تقف سيارة بوكس وينزل منها عدد من أمناء الشرطة والعساكر مع ضابط أو اثنين، لعمل ضبطية تتعلق بممارسة دعارة، أو تهريب مخدرات، أو وجود فنانة (مغنية أو راقصة) قاصر (أى دون السن القانونية)، وذلك بفضل أن مصعد الملهى الليلى لم يكن يسع إلا أربعة أشخاص، وكان من السهل جدًا وجود تليفون عند مدخل العمارة يسمح بإبلاغ الملهى الليلى بوجود أى بوليس، مما كان يسهل عملية تهريب أى نوع من أنواع المخالافات على السلام (أقر بأنى شاهدت فتيات قاصرات يرقصن فى ذلك المكان بملابس خليعة).

ثم إنى أتساءل: كيف كان يعيش سكان الطابق التاسع عشر، خاصة تلك الشقق التى كانت تقع أسفل مسرح الملهى الليلى؟ كيف كانوا يعيشون حياتهم مع هذه الضوضاء المهولة؟ وكم كان يلذ لى أحيانًا الوقوف عند مدخل العمارة خاصة مساء الخميس، حين يزدحم رواد الملهى الليلى عند مدخل العمارة، وفجأة يختلط الحابل بالنابل حين تصل سيارة إسعاف لنقل مصاب أو مريض إلى المستشفى الخاص الذى كان يشغل الطابقين الثانى والثالث من نفس العمارة! فيجد أهل المرضى أنفسهم أحيانًا فى الطابق العشرين، أو يجد زبائن الملهى الليلى أنفسهم أحيانًا فى المستشفى.

## سوسة

(١)

غادرت فندق (أميلكار) في ضاحية قرطاج شمال مدينة تونس، حوالي الساعة الثامنة صباحاً، وذلك لأخذ قطار الضواحي حتى نهايته في محطة تونس البحرية، وهي مسافة حوالي عشرين كيلو متراً، يتوقف فيه القطار عشر مرات في عشر محطات مختلفة، وتستغرق الرحلة حوالي نصف الساعة، وهكذا وجدت نفسي في قلب مدينة تونس التي كنت قد وصلت إليها منذ بضعة أيام، بدعوة من المكتب البيداجوجي التابع لسفارة فرنسا. من هناك ذهبت بتاكسي إلى (باب عليوة) الذي يقع في نهاية شارع (منصف بك)، وعندما عرف السائق أنني مصرى تحدث معي عن أم كلثوم وعبد الوهاب. ومن باب عليوة تقوم سيارات الأجرة إلى كل مدن تونس (القيروان - صفاقس - المنستير - الحمامات - سوسة)، هذا الموقف شبيه بتلك المواقع التي لدينا في المدن المصرية، ولكني لاحظت هنا أن النظام أفضل، وأن الضوضاء أقل.

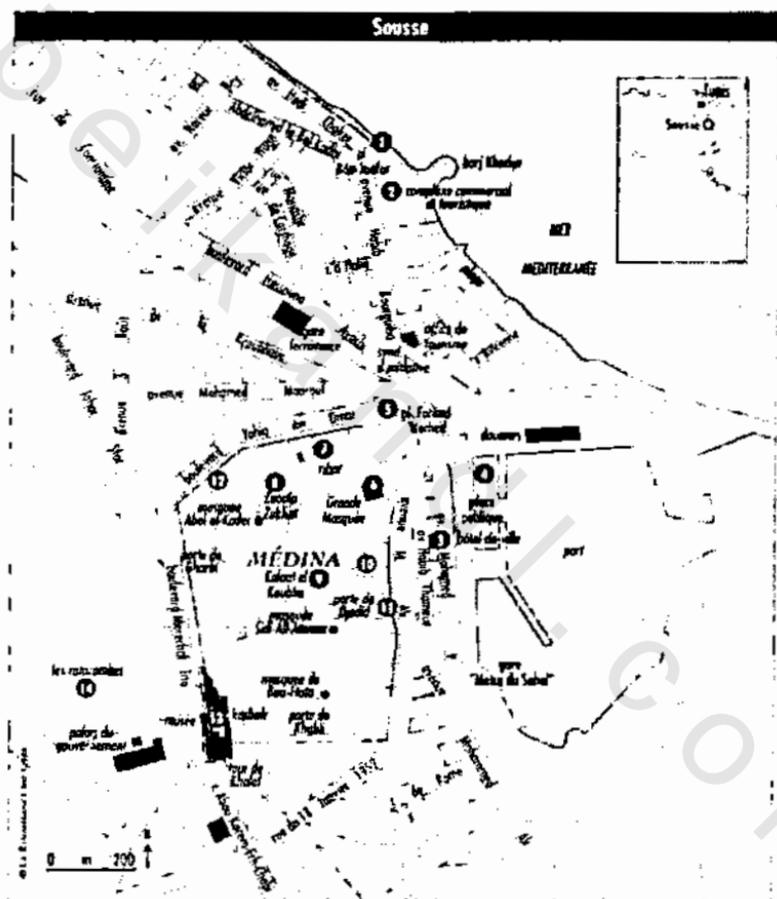
بمجرد أن ركبت السيارة الأجرة وسميها التوانسة (لوااج) وهي كلمة فرنسية بمعنى أجرة، تحركت السيارة البيجو السبعة راكب تماماً مثل تلك التي نستعملها في مصر لنفس الغرض. سألتني السائق: (معك صرف). وعندما لم أurd وذلك لأنني لم أفهم ما هو المقصود بما قاله، قال له أحد الركاب الآخرين: (حدثه بالفرنسية). قلت: (لا بالعربية، ولكني لا أفهم ما هو المطلوب). قال السائق: (معك فلوس). قلت: (نعم، كم). قال: (سبعة دينار) مع ملاحظة أن الدينار التونسي

يساوى خمسة جنيهات مصرية. دفعت قانلا: إننى مصرى وأفضل أن أتحدث بالعربية الفصحى وذلك لأنكم تعرفون العامية المصرية وتقومونها ولكنكم عندما تردون تستعملون العامية التونسية وأنا لا أفهمها.

سكتنا جميعاً. وضع السائق شريط كاسيت فى جهاز كاسيت: السيارة، وإذا به المغنى المصرى (محمد رشدى) فى البوم أغاني الستينيات والتي كان قد أعاد توزيعها فى موسم ٢٠٠٤ (تحت الشجر يا وهيبه ياما كلنا برتقان - وعدوية أهه ضحكتهأ نهار - ورمشك خطفنى من أصحابى وأنا واد صياد). ثم عندما أوقف السائق شريط الكاسيت، وحرك مؤشر الراديو إلى واحدة من المحطات المحلية، كانت أغنية لعمرى دياب! إذن فإن الحضور الفنى المصرى مازال واضحاً فى تونس. ثم بعد ذلك كان هناك برنامج عن كيفية الوقاية من نزلات البرد، وكانت المذبة التونسية تستعمل كلمة عربية، ثم بعد ذلك مباشرة تستعمل كلمة فرنسية، وذلك يحدث فى خلطة غريبة جداً، فنقول مثلاً (إذا أصابتك) ثم نقول (لارينجو فارينجيت) ومعناها بالفرنسية نزلة برد، ثم نقول (يجب عليك استعمال ) ثم نقول (أنتى بيوتك) بدلا من مضاد حيوى! وهذا دليل أكيد على بقاء نفوذ اللغة الفرنسية واضحاً فى الثقافة التونسية.

المسافة بين تونس وسوسة حوالى ١٤٠ كيلو متراً، تقطعها السيارة بسرعة متوسطة حوالى ١٠٠ كيلو متر فى الساعة، على طريق حديث جداً قريب الشبه من الطرق الموجودة فى أوروبا، أى طريق (أوتوروت)، وهو الطريق الذى يمتد مسافة مئات الكيلومترات دون أى تقاطعات على الإطلاق، وإنما هناك كبارى تنزل بك إلى اليمين، أو إلى اليسار أعلى الطريق أو أسفله، كما أنه ليست هناك أية سيارات أو حيوانات تخرج فجأة من أى طرق جانبية كما يحدث عادة

عندنا في مصر، وذلك لأن هذه الأوتوروت إما أنها مرتفعة عن الأرض المحيطة بها، أو أن هناك حواجز تسيّر مئات الكيلومترات معها بامتدادها. كما أنه ليس هناك أي بهائم أو بشر يعبرون الطريق هكذا في أي مكان وأي زمان كيفما اتفق، كما يحدث عادة عندنا في مصر. وهذا دليل أكيد على أن تونس أكثر تقدماً من مصر.



إن من الأشياء الملفتة للانتباه جدًا في تونس، قدرتهم على الاحتفاظ بطراز معمارى واضح تمامًا في كل مبانيهم، وهذا دليل أكيد على الأصالة، فكل منازلهم في المدن والقرى لونها أبيض، ونوافذ المنازل لونها أزرق، والعناصر الزخرفية كلها بالقيشاني الأزرق والأخضر، شئ رائع الجمال. ثم إننا عندما كنا على ذلك الطريق السريع، مررنا بعدد من المدن الصغيرة، حيث كانت كل منازل المدن تلك من طابقين اثنين لا أكثر، ولا يرتفع عن مستوى هذه المنازل إلا مآذن المساجد ذات الطراز الخاص بالمغرب العربي كله، وهى ذات أبدان مربعة المقطع، وتعلوها قمم هرمية أو مخروطية. أما مباني أغلب مدننا المصرية فهى (عك) لم أجد له أى مثل فى أى مكان فى العالم. إلا أن الطبيعة قد ساعدت تونس على البقاء نظيفة وخضراء، وذلك لأن بها أعلى معدل سقوط أمطار فى الوطن العربى كله، خاصة مناطقها الساحلية الشمالية والشمالية الشرقية، إلا أننا بذهابنا إلى الجنوب نقل المناطق الخضراء بالتدرج، وتزداد المناطق الصحراوية الجرداء، وذلك حتى نصل إلى جنوب تونس والذى يقع فى قلب الصحراء الجزائرية الكبرى.

وصلنا سوسة الثانية عشرة ظهرًا، فأخذت تاكسى من المدينة إلى المحطة وذلك لحجز تذكرة فى قطار العودة الساعة الرابعة مساءً، وهو ما يترك لى أربع ساعات لاكتشاف المدينة، وهى مدة كافية جدًا لقطع المدينة سيرًا على الأقدام من أحد طرفيها إلى طرفها الآخر. عند خروجى من المحطة اشتريت خريطة صغيرة للمدينة، وألقيت نظرة عليها لأكتشف موقع المدينة القديمة (القصبية - الرباط)، فاكتشف أنها قريبة جدًا من المحطة، فذهبت إليها سيرًا على الأقدام ووصلت إليها فى أقل من ربع ساعة. شئ رائع الجمال، المدينة

القديمة كلها، بأسوارها وأبراجها وشوارعها ومساجدها وأغلب مبانيها القديمة، ما زالت موجودة كما هي منذ مئات السنين، في حالة حفظ جيدة جدًا. تشغل تلك المدينة القديمة مساحة مربعة طول ضلعها حوالي ٢٥٠ مترًا، أى أن مساحتها الكلية حوالى ٦٠٠٠٠ متر مربع، وهى تقع فى قلب المدينة الحديثة على ساحل البحر المتوسط، أما الامتداد العمرانى للمدينة، للفنادق والمجمعات السكنية الحديثة، فيقع خارج المدينة بمحاذاة الشاطئ على امتداد عدة كيلو مترات.

بعد ذلك مشيت من ميدان فرحات حشاد (اسم أحد المجاهدين ضد الاحتلال الفرنسى) إلى شارع الحبيب بورقيبة (رئيس جمهورية تونس السابق)، حيث وجدت دار عرض سينماتى بها فيلم محمد هنيدى (صعدي فى الجامعة الأمريكية)، وفى دار عرض مقابل وجدت فيلم يوسف شاهين (إسكندرية نيويورك). وعندما لمحت أكواب بيرة فى أيدي زبائن مقهى مررت أمامه، دخلت وجلست وطلبت واحد بيرة، فانحنى علىّ النادل قائلاً بالفرنسية (هى كما تعرف بدون كحول)، ولشدة عطشى وكذلك بسبب حرارة الجو بقيت جالسًا وشربت واحدة. الوضع هنا فيما يتعلق بالمشروبات الكحولية شبيه بما يحدث فى مصر، إذ يصعب جدًا على المقاهى والمطاعم الحصول على ترخيص بيع مشروبات كحولية، وقد يكون هذا هو أحد آثار المد الإسلامى الحالى فى كل البلاد العربية تقريبًا وبدون استثناء. (ما زلت أتذكر أنه كان من الممكن حتى نهاية السبعينيات، شراء زجاجات البيرة ستلا بسهولة شديدة من أى محل بقالة، فى أصغر مدينة مصرية بدون أى مشاكل).

## شرم الشيخ

لم أجد رغبة في القراءة، وهو ما لم أكن أفعل غيره خلال الأيام الأخيرة، فتوجهت للنزهة على الشاطئ، وفوجئت بعدد من الفتيات الأجنيات يجلسن عاريات الصدور!! وجدت في نفسى بعض الشجاعة للجلوس بالقرب منهن!! وبعد قيامهن وجدت في نفسى المزيد من الشجاعة للصعود خلفهن إلى الجبل، ذلك الجبل الذى تشغل هضبته حاليًا (٢٠٠٥) عدة قرى سياحية، كان فى ذلك الوقت (١٩٨٥) يفصل بين فندق مارينا شرم ومعسكر القوات المتعددة الجنسيات التابعة للأمم المتحدة. عندما هبطت إلى الجهة الأخرى من الجبل لم أجد أى أثر للفتيات!! مشيت مئات الأمتار على الشاطئ دون أن أعثر لهن على أى أثر، وقبل أن أقرر العودة من حيث أتيت، لمحت على بعد بضعة عشرات من الأمتار جسمًا يتحرك! وكلما اقتربت منه ازداد يقينى أنه لفتاة، وكلما اقتربت أكثر زاد اعتقادى بأن الفتاة لا ترتدى أية ملابس على الإطلاق، يا للهول إنها الحقيقة!! ماذا سأفعل؟ هل أعود من حيث أتيت، ويا دار ما دخلك شر؟ أم أستأنف السير؟

عند تلك اللحظة شعرت الفتاة بوجودى ورفعت رأسها، فقررت أن أستأنف السير وكأنها غير موجودة! وهذا هو ما شجعها على البقاء على ما هى عليه! إلا أن دقائق قلبى عندما كنت أعبر أمامها غير ملتفت إليها كانت قد وصلت إلى حوالى مائة دقة فى الدقيقة! مشيت مائة متر أخرى ثم جلست على الرمال كأتى أتأمل البحر! خلعت

القميص وبقيت بالشورت، ثم بدأت فى ممارسة بعض أوضاع اليوجا،  
مثلا كالوقوف على الأكتاف. مرت حوالى ساعة ونحن على هذا  
الحال، وحدنا تماما على هذا الشاطئ المهجور، دون أن أحاول مجرد  
النظر إليها، أما هى فأنا اعتقد أنها كانت تراقبى.

كنت أحمل معى كتابا باللغة الإنجليزية هو كتاب (إرمان/رانكه  
Erman/Ranke) عن الحضارة المصرية القديمة، وهو مجلد ضخ  
من حوالى خمسمائة صفحة (طبعة دوفر)، ورق خفيف وبغلاف  
خفيف، وملىء بالصور والرسومات عن مصر القديمة، وكنت قد  
قرأت فيه حوالى سبعين صفحة، ولم تكن لغتى الإنجليزية تسمح  
باستيعاب كل ما قرأت، فكنت أضع علامات حمراء أسفل الكلمات  
الصعبة التى لا يستقيم فهم المعنى دون فهمها. قلت فى نفسى أتحتاج  
بهذا الكتاب وأقرب من الفتاة، وفعلت قمت من مكانى، واضعا  
قميصى على كتفى واقتربت منها، وكانت ما تزال كما هى، إلا أنها  
عندما رأتنى أقتربت منها وأتوى الحديث إليها، سحبت منشفة غطت  
بها نفسها.

قلت: (صباح الخير، من أى جنسية أنت؟)

قالت: (أنا أسترالية)

قلت: (إذن فلغتك الأم هى الإنجليزية)

قالت: (نعم)

قلت وأنا أمد لها يدى بالكتاب: (هل يمكن أن تساعدنى فى معرفة

معانى هذه الكلمات؟)

أمسكت بالكتاب وأخرجت نظارة طبية من حقيبتها، ونظرت أولا

فى الصفحة المفتوح عليها الكتاب، ثم قلبت فى صفحاته وقالت: (يبدو

أنه كتاب مسلى جدا، ما هى الكلمات التى لا تعرفها؟)

قلت (كل الكلمات التى أسفلها أو بجوارها علامات حمراء)

قالت: (كل هذا؟)

قلت: (فلتساعديني على قدر استطاعتك، أنا قد حضرت إلى هنا بهذا الكتاب ولكنني نسيت إحضار القاموس).

بقيت مع ليز الأسترالية حوالي ساعتين، وجدنا خلالهما مرادفات لحوالي مائتي كلمة إنجليزية، وتصفحنا الكتاب كله لمشاهدة الصور والتي تكفلت أنا بشرحها والتعليق عليها، وحكيت لها كيف أنني كنت قد حصلت منذ شهر واحد فقط على ترخيص مزاوله مهنة إرشاد سياحي، ولكنني لم أكن قد بدأت بعد ممارسة هذه المهنة، لأنني كنت في شرم الشيخ فقط بصفتي عازف جيتار باص مع فريق الموسيقى بنائيت كلوب مارينا شرم.

كانت قد اطمأنت إلى بعض الشيء، وذكرت أنها قبل أن تغادر المكان تريد أن تغطس في مياه البحر، فقامت ووقفت أمامي بدون أي ملابس، واندفعت نحو البحر. لم أعرف ماذا أفعل؟ بقيت جالساً في مكاني، عادت إلى وهي تلمع تحت الشمس، ويتساقط الماء من جسمها وشعرها، وبدأت تتشف جسمها وأنا أحول بصري عنها، ارتدت الشورت والتي شيرت، وسرنا سوياً حوالي كيلو متر حتى فندق مارينا شرم، فودعتها حيث إنه الفندق الذي أقيم فيه، أما هي فقد استأنفت المشي بامتداد الشاطئ الخالي تماماً من أي مبانٍ، وذلك لتعود إلى صديقها الذي كان ينتظرها في المخيم في نهاية خليج نعمة. كان هذا في يناير ١٩٨٥ وذلك قبل أن تقتحم المكان جحافل البشر.

## شانغهاي

(١)

كنا قد أخذنا الطائرة من مدينة بكين عاصمة الصين، إلى مدينة (هوانج زو) والتي تقع على بعد ساعتين طيران، أى حوالي ١٥٠٠ كم جنوب بكين، وقضينا فيها ليلة. وصباح اليوم التالي قمنا بعمل رحلة فى بحيرة جميلة، ثم زرنا أحد معابد بوذا، والذي وجدنا فيه العشرات من تماثيل ذلك الإله، مع آلهة أخرى، منحوتة فى صخور المكان، بطريقة فى منتهى العبقرية، وذلك بالإضافة إلى مئات التماثيل الصغيرة المنحوتة بالنقش البارز، وتمثل الحجاج الذين كانوا يأتون إلى هذا المعبد، بكل وسائل مواصلاتهم المتاحة فى ذلك الوقت من القرن الخامس قبل الميلاد، مثل الجمال والخيول، وكذلك الحجاج القادمين على أقدامهم. ذكرت بعض زوجات الأطباء المشاركات فى الرحلة أنهم كن يفضلن لو أنهم كن قد ذهبن إلى مركز تجارى Shopping center، أو مول Mall، لشراء المزيد من البضائع الصينية لزوم هدايا الأهل والأصدقاء، وذلك بدلا من الذهاب إلى ذلك المعبد البوذى. وقد نطقن كلمة بوذى كما لو كانت نوعا من السباب. (كل يوم معبد - كل يوم معبد) التى جاءت على ألسنتهن جميعا ذكرتى بـ (كل يوم فول - كل يوم فول).

تناولنا طعام الغداء فى مطعم إسلامى فى مدينة هوانج زو، وكلمة إسلامى تكون مكتوبة على مدخل هذا النوع من المطاعم بحروف عربية كبيرة، وذلك معناه أن الوجبات التى يقدمها هذا النوع من

المطاعم خالية من لحم الخنزير ومن الخمر، وقد لاحظت أن هذا النوع من المطاعم منتشر، وهذا دليل على وجود عدد كبير من المسلمين. بعد تناول طعام الغداء انطلقنا بالأتوبيس في رحلة طولها حوالي مائتي كيلو متر، وتستغرق ثلاث ساعات للوصول إلى شانغهاي، من الرابعة مساءً إلى السابعة مساءً، أي قبل غروب الشمس، الذي كان في ذلك الوقت من العام في ذلك المكان من الصين في حوالي الثامنة مساءً. كنا نقطع الطريق من مدينة هوانج زو إلى مدينة شانغهاي عبر مناطق من الريف الصيني. مررنا بعشرات القرى الصغيرة إلى يمين الطريق وإلى يساره، شاهدنا خلال مرورنا مئات المساكن وآلاف الأفدنة من الأرض الزراعية، وكان عدد البشر الذين شاهدناهم خلال تلك الرحلة قليلاً جداً، فالحقول شبه خالية من البشر، رغم أن الشمس لم تكن قد غربت بعد، ثم كانت المساكن كذلك مغلقة وخالية من السكان، فازدادت أماننا علامات الاستفهام.

ولم أعرف الإجابة على تساؤلاتنا (أين ذهب الناس؟)، إلا من خلال برامج شاهدتها في القناة الفرنسية الفضائية مؤخراً عن تلك المنطقة من الصين، حيث عرفت أن الاقتصاد الصيني هو أسرع معدل نمو سنوي في العالم الآن، وأن الخبراء الاقتصاديين يعتقدون أن الصين ستكون أقوى دولة في العالم خلال عشرين عاماً، وبعضهم يقول خلال عشر سنوات فقط، وعرفت كذلك أن مدينة شانغهاي هي رأس ذلك اللتين الصيني، وهي المدينة التي ستصبح نيويورك القرن الواحد والعشرين، عاصمة للرأسمالية العالمية. وعرفت كذلك أن شانغهاي أصبحت فعلاً أعلى مدينة في الصين، حتى أعلى من هونغ كونج، وأن أسعار فنادقها قد وصلت إلى مستوى أسعار فنادق عواصم أوروبا، وأنه لم تعد هناك أي قيمة إلا للمال، ولم تعد هناك أي قيم لا شيوعية ولا دينية ولا حتى أخلاقية، فكل شيء يمكن بيعه وشراؤه .

هى مدينة مبهرة بكل المقاييس، وهى مدينة تتسع بمعدلات خرافية، يكفى أن نعرف أنه قد تم بناء ألف وخمسمائة برج سكنى وإدارى، يتعدى ارتفاعها المائتى متر، وذلك خلال العشر سنوات الأخيرة (١٩٩٤ - ٢٠٠٤)، أى بمعدل مائة وخمسين برجًا فى العام الواحد، أى تقريبًا برج جديد كل يومين، وأن هؤلاء العمال كانوا قد احتاجوا إلى ثلاثة ملايين عامل بناء، وأن هؤلاء العمال كانوا قد قدموا إلى شانغهاى من المناطق الريفية المحيطة بها، هجروا الزراعة وحضروا إلى المدينة للعمل كعمال بناء، وذلك بعد حضور دورات تدريبية لإعادة تأهيلهم، وذلك لأن أجر عامل البناء هو ثلاثة أضعاف أجر العامل الزراعى، أى أن الإغراء المالى من الصعب مقاومته. (يجب أن أتصل بالدكتور عصام العريان فى نقابة الأطباء لأقدم له هذه الإجابة على تساؤلاته أثناء تلك الرحلة بالأتوبيس، فقد كان هو الذى يمسك الميكرفون أثناء الطريق معلقًا ومتسائلًا: أين ذهب الناس؟).

ولكنى بدأت ألتفت أكثر وأكثر إلى ما يذكر عن الصين فى القنوات الفضائية المختلفة، وإلى ما يكتب عنها فى الجرائد والمجلات:

أولاً: وجدت أن هناك ما يدل على أن مسألة خلو الأراضى الزراعية بين هوانج زو وشانغهاى من الفلاحين، قد لا تكون فقط بسبب هجرة هؤلاء العمال الإرادية إلى شانغهاى، فبعض المقالات المنشورة تدل على أن الفساد الإدارى قد يكون هو السبب. فقد تمكن عدد من كبار الرعوس فى الدولة من طرد الفلاحين من المناطق المحيطة بالمدن الكبيرة، وذلك على أساس أن هذه الأراضى ستكتسب يومًا ما قيمة كبيرة، عندما تمتد هذه المدن إليها، وأنه يفضل التخلص من الفلاحين الآن، طالما كان هذا سهلًا حالياً، بدلا من الانتظار غير مضمون العواقب.

ثانيًا: تذكرت ما سبق أن شاهدته ذات مرة في باريس، عند الاحتفال بذكرى ربيع بكين (مايو ١٩٨٩)، عندما تصدى شباب الجامعات في بكين، لديابات النظام، في قلب ميدان السلام السماوى، وذلك رغبة من هذا الشباب فى الحصول على حق حرية التعبير عن سخط هذا الشباب من هذا الفساد الإدارى. كنت قد شهدت معرضًا للصورة الفوتوغرافية التى تبين بوضوح تعذيب النظام الصينى للطلاب المعارضين له.

ثالثًا: تذكرت كيف أننا فى محطة قطارات هونج كونج، والتى وصل إليها مبكرًا جزء من مجموعة نقابة أطباء القاهرة، وكنا مضطرين إلى انتظار الباقين. خرجت أدور حول المكان فوجدت مظاهرة صامتة، تحمل لوحات لصور فوتوغرافية مكبرة، لرجال ونساء كانوا قد أحرقوا أنفسهم فى الميادين العامة فى المدن الصينية، فقط لمحاولة لفت أنظار الرأى العام العالمى إلى حقيقة أن الحريات السياسية فى الصين مكبوتة، وأن حريات التعبير بشكل عام محظورة، وأن العالم منبهر بتقدم الصين الاقتصادى، دون الالتفات إلى كبت النظام لحريات الشعب. كانت هذه هى العبارات المكتوبة بالإنجليزية أسفل الصور التى حملها المتظاهرون.

رابعًا: قرأت كذلك مؤخرًا كيف أن أحد التقارير الصينية المقدمة من أطراف الدولة إلى الحكومة المركزية، تقول أن الهوة الشاسعة، والتى تزداد اتساعًا، بين أغنياء المدن الكبرى، وفقراء المناطق النائية الريفية، تنذر بثورة شعبية.

خامسًا: قرأت خلال صيف ٢٠٠٥ كتابًا صغيرًا بالفرنسية عنوانه (يوميات ماى بن - الحياة اليومية لتلميذة صينية)، وهو كتاب يصف حياة هذه التلميذة البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، وتعيش فى أحد الأقاليم النائية، يعطيها والدها العامل الزراعى

